الأدب في أسبوع

الهجرة

يا نبيَّ الله ! !

إنَّ الإسلامَ قد قَعَدَ به أهلُه ، والزَّمنُ بالناسِ يعدُو، والحياةُ في العالمِ فكرٌ يتحقَّق ، وهي عندنا حُلمٌ يتبدَّد، هذه أمَّتُك تملأُ الأرضَ ، ولكن قد فرغت قلوبها من الإيمان والإيمانُ في دِينك قولٌ وعملٌ ، كانت به المعجزةُ الإسلامية ولكنه عندنا قولٌ وجدَلٌ ، تكون به الفُرقةُ الجاهليّة ...

فاللهمَّ هِجْرةً كهجرَةِ نبيِّكَ بالعزم والإيمان
اللهمَّ جهاداً كجهادِهِ يُجدِّد القلوبَ والأوطان

الشباب والأدب

الطفل حياةٌ صغيرة غضَّةٌ ليِّنةٌ تقبلُ التشكل وتطاوعُ على ضغط البيئة التي تكتنفها وتُطيفُ بها وتميل عليها ؛ وبيئةُ الطفل هي أخلاق أبويه ، ومعاملتهما وحديثهما وما يحيط بهما من الأقارب والأصحاب والخدم وكل من يعود البيت من زوّاره. وقد جُمِّل الإنسان طبيعة التشكل من أوّل عمره ليكونَ بعدُ إنساناً اجتماعياً مقتدراً على التصرُّف في نظام الجماعة بما لا يخرجه من جوّها ويقذفه وراء حدودها التي ضربتها عليها الأحوال الاجتماعية التي يتميز بها الجيل من الناس الذين يعاشرهم . وتتصل بهذه الطبيعة من قريبٍ طبيعة أخرى هي التقليد ، ليسوغَ له أن يَثقف الحياةَ ويتلقَّف أسبابَها وطرائقها وأساليبها في مدًى قصير ، فلا ينقطع دون إدراك الطلائع الإنسانية السابقة التي بدَرت أمامَه في الحياة ومارستها وعملت لها وجددت فيها بعضَ ما يمكن تجديده في نظامِ الجماعات . ولا يزال الإنسان — من أول عمره — خاضعاً خضوعاً تاماً لهاتين الطبيعتين ولقانونهما المستبدّ ، حتى يأتي عليه زمان يستطيع أن يتحرر في بعض نواحيه بالخضوع لقانون آخر هو قانون الاستقلال الفكري والعملي الذي تقوم عليه رجولة الإنسان وقوته ، ولكنه مع ذلك يبقى أبداً متلبساً بأسباب القوانين الأولى التي تخضعه في بعض النواحي للتشكل والتقليد في زحمة الجماعات وضغطها وتأثيرها . فهو إذن لا يبلغ مرتبة الاستقلال إلا بعد أن يكون قد قبل من الأشكال — بالضعف والتقليد — ما لا يستطيع أن ينفك منه أو أن يتفصّى من قيوده التي تحبسه على ضروراتها . . .

فمن هنا يبين مقدار الخطر الذي تنذر به هذه الفترة الأولى من حياة الإنسان ؛ ونحن لا نستطيع أن نحدد عمر هذه الفترة ، ولكنها تستمرُّ على الأقل إلى نهاية رَوْعَةِ الشباب ما بين العشرين والثلاثين ، بل ربما جاوزت إلى نهاية العمر إذا ما انتكست الحياةُ في الحيِّ وصار إلى حيوانية آكلة شاربة غير مفكرة !

فالشاب حين يخرج إلى الحياة العقلية والفكرية تستهويه أسماء المفكرين من الكتاب والشعراء والفلاسفة فتستهيمه وتذهب بهواه وعقله إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم والسير على مناهجهم ، ولا يزال كذلك في تحصيل وجمع وتأثر واتباع حتى يتكوّن له قِوَامٌ عقليٌّ يجرّئه على الاستقلال بفكره ورأيه ومذهبه . فالقدوة والأسوة هي مادة الشباب التي يتم بها تكوينه العقليّ على امتداد الزمن وكثرة التحصيل وطول الدُّرْبَةِ ، فإذا كان ذلك كذلك فالكتّاب والشعراء والفلاسفة وأصحاب الرأي وكل من يعرض نتاجه العقلي للشباب ، ويكون عُرضةَ الاقتداء والتأسي والتأثر — يحملون تبعة تكوين العقول الشابة التي ترث علومهم وأفكارهم ثم تستقل بها وبإنتاجها الخاص ، وكذلك يكون هذا الإنتاج الخاصُّ ضارباً بعرق ونسب إلى الأصل الأول الذي استمد منه واتبعه وتلقّى عنه

هذا ... ، فتبعة الكتّاب والأدباء أمانة قد تقلدوها وحملوها ، ثم ارتزقوا منها أيضاً وأكلوا بها وعاشوا في الدنيا الحاضرة بأسبابها ، فهم على اثنتين : على أمانة قد فرض عليهم أن يؤدوها إلى من يخلفهم من الشباب الذي يتبعهم ويتأثر آدابهم، وعلى شكر للمعونة التي يقدمها لهم الجيل الشاب الذي يبذل من ماله ليشترى

منهم ما يكتبون وما يؤلفون وما يقدمون للتاريخ من آثارهم ليكسبوا به خلود الاسم وبقاء الذكر

وشبابنا اليوم قد تهدّمت عليه الآراء ، وتقسّمته المدنية الأوربية الطاغية ، وهو لا يجد عصاماً يعصمه من التدهور فى كل هوة تنخسف بين يديه وهو يقبل عليها بشبابه ونشاطه واندفاعه وعنفوان قوته فى الشوط الذى يجريه من أشواط حياته. والمدارس فى بلادنا لا تكاد تعطيه من الرأى أو من الفن أو من الأدب ما يبلّ أدنى ظمأه إلى شىء من هذه الأشياء ؛ وإذن فليس يجد أمامه إلا المجلات والصحف والكتب التى يقدمها له أصحاب الشهرة من كتّابه الذين تُرفَع له أسماؤهم فى كل خاطرة وعند كل نظرة. وهو لا يَنى يستوعب منهم أساليبهم وأفكارهم وآراءهم وما يدعونه إليه من موائدهم

فهل ينصف هؤلاء الكتاب هذا الشباب ؟ أتراهم قد عرفوا قدر أنفسهم عند الشباب فهيّأوا له قوام احتفالاً بشأنه وحرصاً على مصيره الذى هو مصير الأمة ومصير مدنيتها ؟ أنا لا أرى ذلك إلا فى القليل ممن عرفهم الشباب وجعلهم نصب عينه ، واتخذ أساليبهم فتنة يهوى إليها

ناقد يتكلم

وأنا أدع أحد الكتاب من إخواننا الشاميين يتحدث عن بعض ما نحن بسبيله ، وهو الأخ « قسطنطين زريق » فى كتابه « الوعى القومى » فقد قال فى ص (١٦٢ — ١٦٣) :

« لسنا نعيش اليوم فى عصر ترف عقلى ورفاهية فكرية . فى عصور الترف والرفاهية قد يسمح للكاتب أن يقول : « لى الحق أن أكتب ما أريد وأعبر عما فى نفسى كما أشاء » ... إن عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلى . وكما أنه لا يسمح للناس فى زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم فى سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة ، فكذلك يجب ألا يسمح لقادة الفكر فى عصر الضيق العقلى والأزمة الفكرية أن يبددوا قواهم على المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية

فعلى كل منا عند ما يهم بكتابة مقال أن يتساءل بصراحة : « إلى ماذا أرمى ؟ أترانى أضيف بمقالى فوضى إلى هذه الفوضى الفكرية التى يتخبط فيها عالمى ، وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التى تتطاحن فى محيطى ، فأزيد فى بلبلة أمتى واضطرابها الفكرى ، أم أنا أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة ؟

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير ، فخيرٌ له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة فى نفسه ، وأن يبحث له عن طريقة أخرى يخدم بها أمته ولغته » . اهـ

إن هذه الكلمات الفلائل التى ختم بها الأستاذ زريق بحثه عن الأدب الذى يقود الأمة وشبابها إلى إنقاذ المدنية العربية والإسلامية والشرقية من رَدَغة الخبال التى تورط أهلها فى أوحالها ومستنقعاتها — حقيقة بأن تكون من « محفوظات » كبار الأدباء الذين يرمون عن أقلامهم آراء وعقائد وأساليب لا يمكن أن تكون مما يحتملها مخلص لأمته ، ينظر إلى المستقبل الذى هو ثمرة الماضى والحاضر ، ونتاج اللّقاح الفكرى الذى تتقبله عقول الشباب حين تبدأ تتفتح عن أكمامها لتعمل عملها فى إنتاج الثمر إما غضّاً شهياً وإما فجّاً متعفناً موبوءاً

هل يمكن ؟

فهل يمكن أن يكون أدباؤنا ممن يتقبل النصح الخالص الذى لا تحمل عليه ضغينة أو رياء أو حيلة ؟ وهل يمكن أن يعرف أحدهم أن ليس فى الدنيا أحد هو أعلى من أن يتعلم ، ولا أحد أقل من أن يُعلم ؟ وهل يمكن أن تفرَغ النفوس التى نفختها الكبرياء من الروح النافشة التى لا طائل تحتها ؟

لقد جعلت مقامى فى هذا الباب مقام المذكّر الذى يجب أن يؤدى واجبه لمن يقرأ كلامه ، فأنا لا أستطيع إلا أن أتكلم بكلامى وإن أغضَب من لا يرضى إلا بما يرضيه من الملق والدّهان والمماسحة ، وقد انقضت أسابيع طوال من أسابيع الأدب ، وأنا أزداد كل يوم شكاً فى مقدرة أدبائنا على الإنتاج الأدبى الرفيع الذى يمكن أن يخلد فى تاريخ الأدب ؛ وقد تتبعت أقوال هؤلاء وأساليبهم فلم أجد إلا كل ما يحفزنى على المصارحة والنصح وإبداء الرأى مكشوفاً غير مكفّن

وأنا لو كنت أحمل نفسى على تتبع هؤلاء واحداً بعد واحد أنقد أقوالهم على التفصيل دون الجملة ، ثم أقيد ما أريد بالكتابة فى هذا الباب من « الرسالة » لما كفانى القدر الذى أكتبه ،

ولما استطعت أن أستوعب الرأى فى كل ذلك على أسبوع أسبوع، فلذلك تجنبت جهدى أن أعرض لأشياء كانت تقتضينى أسابيع فى تقصيها وتفصيل أجزائها ، وبيان مكان الفساد منها ، والدلالة على قلة عناية هؤلاء بقرائهم ، وصغر احتفالهم بالأدب الذى اتخذوه لهم صناعة عرفوا بها عند الناس ، حتى صاروا للشباب أئمة بهم يقتدون . نعم ، وكأنهم لا يسرفون أن ما يخرجونه للناس إن هو إلا غذاء جيل من الشبان يأخذ عنهم ويحتذى عليهم ، فإن يكن فى الذى يأتون به فساد فهو إلى إفساد الشباب الجديد أسرع ، وفى طبائعه اللينة أعمل وأوغل ؛ فأيما خطأ صغير منهم فهو عدة أخطاء كبار فى الدين بلونهم من الشباب المقلد المسكين

إن أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى مبارك والأستاذ الزيات وفلان وفلان من كبار الأدباء هم من هذه الأمة الشابة من الناس بمنزلة السراج الذى يضىء للشباب معانى الحياة المظلمة بالجهل ، فإذا انقلب السراج فإنما هو الحريق وانتشاره وممعمته ومضضه قوة الشباب بفكين من نار حطمة

الرحلتان

ويذكرنى هذا ما يقطع علىّ نهاية الرأى . فقد قرأت أخيراً مقالتين ، إحداهما للدكتور طه ، والأخرى للأستاذ أحمد أمين ، وهما بهذا العنوان « رحلة » . وقد تعود الأستاذان أن يتعارضا المقالات منذ أسابيع طويلة ، وأكثرا فى ذلك إكثاراً لا يمكن أن يُغْتَفى عنه ؛ وكنتُ أحب ألاّ أعرضَ لَهُ لعلّه ينتهى إلى نهايته ، فإذا هو شىء لا ينقطع . فمن يوم أن كتب الأستاذ أحمد أمين ما كتب وسماه « مدرسة الزوجات » وقارضه الدكتور طه « بمدرسة الأزواج » ثم « مدرسة المروءة » ثم « مدرسة ... » إلى آخر هذه الأشياء ، وافتتنا بهذه الطاحون التى تدور على دقيق مطحون قد فُرِغ منه — من ذلك اليوم وأنا لا أرى فيما يكتبان إلا استسلاماً للقلم وبدواته وبوادره ، واجتلبا فى ذلك من الرأى ما لا يستقرُّ ولا يتماسكُ

وفى هاتين الرحلتين رأيتُ العجب ! ! فالدكتور طه مثلاً قد أطال فى تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها بما احتمله عليه الغضب الذى رغب فى إنشاء مدرسة له يسميها « مدرسة الغضب » رحل الدكتور طه بالسيارة فى الطريق الزراعية فغاظه التراب الذى يثور من حوله فيطلق لسانه بهذه الأسئلة « لماذا ندفع الضرائب ؟ وفيم تنفق الدولة أموالنا ؟ وماذا تصنع الدولة ؟ ولماذا ننشئ الدولة ؟ »

فليخبرنا الدكتور طه عن السبيل الذى نتّقى به الزراية على أرض مصر ! ماذا تصنع الدولة فى طريق عن جانبيه تلك الأرض الخصبة الواسعة التى تُسْقَى لتطعم أهل مصر من خيراتها ؟ كيف تتقى الدولة مرور الناس والدواب وأرجلهم تحمل أوحال الأرض الخِصْبَة فتمرُّ بها على الطريق الزراعى الممهّد ، فتأتى الشمسُ المصرية الملتهبة فتجفف الوحل فيثور تراباً ؟ إن هذا كلام يقال فى البلاد الباردة التى لا تفعل الشمس فيها ما تفعل فى أرض مصر الغبراء ، هناك فى « قرية من قرى السفوا أو الدوقنبيه أو الكانتال ، على قمة جبل من هذه الجبال التى ألف الدكتور طه الاعتصام بها إذا أقبل الصيف ، والتى فارقها فى الصيف وقلبه يتقطع حسرات » أو كما قال ... ! إن مثل هذا يجب أن يلغى من آراء أدبائنا ، إن لم يكن من أجل أنفسهم فمن أجل مَن يتولاهم من الشباب . وليس أكثر آراء الأستاذ أحمد أمين فى هذا المقال بأقل ابتعاداً عن الحق من الذى عرضنا له

جناية !!

والأستاذ أحمد أمين هو الذى حمل على الأدب العربى ، وحقر الشعر الجاهلى ، ودفع بحجته فى وجوب نبذ هذا الأدب وذلك الشعر الجاهلى لأنه كان جناية على أدبنا . وأنا كنت هممت أن أؤدى واجبى للأدب العربى بإظهار فساد هذه الآراء التى لم تنضج ثمراتها ، ثم رجعت عن ذلك ، رغبة أن يترك مثل هذا الرأى حتى يفنى فى نفسه ، لعلى — بالاستنتاج — أن الأستاذ ليس أديباً ناقداً ، والناقد أديب مضاعف ، وقدرته على الأدب أكبر من قدرة الأديب المحض . وقد أحببت أن أقف على كلمة فى مقالة الأستاذ أحمد أمين « رحلة » تدلك على أن رأى الأستاذ فى الأدب العربى والشعر الجاهلى رأى لا يؤخذ به ، فقد قال : « وها هم أولاء رفقة كأنّ أخلاقهم سبكتْ من الذهب المُصفّى ، وكأن شمائلهم عصرت من قطر المزن » وهى جملة لا ينطق بها أديب متمكن ألبتة ، فما ظنك بأديب ناقد ، وأنا لا أعرف كيف يعصر قطر المزن (أى الماء) ، وهو لا يمكن أن يُعصر . ونحن لا نشك فى أن الذنب ليس للأستاذ الجليل ، وإلا فهو ذنب الشيخ اليازجى صاحب « نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، فى المترادف والمتوارد » ... الخ ، الذى ذكر هاتين العبارتين بنصهما وترتيبهما